**محاضرة في النقد العربي القديم**

**قضية الوضوح والغموض**

 **د. فتيحة حسيني**

**(سنة أولى - فرع2)**

من المعلوم أن لغة الشعر تختلف عن لغة النثر ، لأنها لغة الإيجاز ، فهي لغة مشحونة بالمعاني ؛ ومن هذه المعاني ما هو مكشوف ، ومنها ماهو باطن يحتاج إلى الكشف . ومن هنا جاء النقد العربي القديم يطرح مسألة الوضوح والغموض في الشعر العربي .

 **مفهوم الغموض في اللغة**

تناولت المعاجم العربية القديمة لفظ الغموض من خلال استخداماته اللغوية المختلفة، فالغموض في اللغة مصدر من غمض (بفتح الميم وضمها) وكل ما لم يصل إليك واضحاً فهو غامض، ولذلك فالغامض من الكلام خلاف الواضح، كما يقال للرجل الجيد الرأي: قد أغمض النظر. والمسألة الغامضة: هي المسألة التي فيها دقة ونظر.

وقد نال مصطلح الغموض كثيرا من القلق والاضطراب أكثر من أي مصطلح نقدي آخر لارتباطه بجوهر العمل الفني من حيث المؤلف والنص والمتلقي. ويعود هذا القلق والاضطراب إلى الاختلاف في تحديد مفهومه، ومعرفة غايته وأهميته، كما تعود إشكالية تحديد مصطلح الغموض إلى مرادفاته اللغوية الكثيرة مثل التعمية والإبهام والاستغلاق والألغاز وغيرها من التسميات التي ربما يضلل بعضها المتلقي.

**الغموض في النقد العربي القديم**

إن الغموض ليس معناه التعقيد ، أو الإبهام ، وإنما هو القدر الذي يحتاج إليه الشاعر ليعبر عما يريد ، ويعرض صوره بثوب بديع ، وهو يعطي النص تفسيرات مختلفة تذهب النفس فيها كل مذهب ، على أن يكون من التعقيد الذي قالوا أنه يستهلك المعنى.

**أهمية الوضوح**

يعتبر الوضوح من أهم جماليات التعبير وأهم أركان الأسلوب، وعلى الكاتب واجب نحو القراء لا ينبغي أن يغفله ، وهو أن يكون واضحا في كلامه ولا يكلفهم من كد النظر إعمال الفكر ما يشق عليهم

**الوضوح والغموض في ا النقد العربي القديم**

إن قضية الوضوح والغموض تعد مسألة جوهرية من قضايا النقد الأدبي ، وهي من أهم دوافع الحراك النقدي في القديم والحديث، فهي تشكل علامة بارزة في الدرس النقدي.

قضية الوضوح والغموض في الشعر قضية قديمة قِدم الشعر نفسه، جذورها ضاربة في أعماق القِدم منذ نشوء الأدب في العصر الجاهلي، حيث كانت السمة الغالبة على الأدب آنذاك الوضوح نظراً، لأن تفكير العربي بعفويته يميل إلى الوضوح وينفر من الغموض، حيث كانت الحياة البدوية الساذجة لها أثرها في طبع فكر البدوي بالبساطة والوضوح، فجاء تبعاً لذلك أدبه بعيداً عن التعقيد قريباً إلى الوضوح نظراً لبساطة الحياة التي يعيشها في أحضان الطبيعة المكشوفة، مما قد يُعد سبباً يُفسر به صفاء فكر العربي ووضوحه بشكل عام، لكن وإن كان الوضوح هو السمة الغالبة في الشعر فقد تسرَّب شيء من الغموض إلى الشعر في مرحلة من مراحل.

ثم برزت قضية الوضوح والغموض بشكل عميق في العصر العباسي مع ظهور المحدثين ومذهبهم في الصنعة والبديع، وأشار النقد إلى أبي تمام على وجه الخصوص بأنه شاعر يؤثر الغموض، إذ يعقد المعنى، ويبالغ ، ويبعد في الصور، ويستعمل الغريب من الألفاظ.وخير دليل على ذلك الحوار الذي دار بينه وبين ناقديه أبي سعيد الضرير وأبي العميثل عندما استمعا إلى شعره فقالا له: "لم لا تقول ما يُفهم؟" فكانت إجابته التي استُظرفت: "لم لا تفهمان ما يقال؟".
يميل أصحاب البحتري إل حلاوة اللفظ، وحسن التخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتى، وانكشاف المعاني. أمّا أصحاب أبي تمام فيميلون إلى غموض المعاني ودقتها.. مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج .

لهذا، عاب أصحاب أبي تمام مَن أعرض عن شعر صاحبهم، بعدم الفهم وقصور العلم، ويستشهدون على دعواهم بابن الأعرابي، الذي كان يردّ على (أبي تمام) من معانيه ما لا يفهمه، ولا يعلمه، فكان إذا سُئل عن شيء منها، يأنف أن يقول: لا أدري، فيعدل إلى الطعن عليه.

وأصحاب أبي تمام يعترفون بأن صاحبهم قد أتى في شعره بمعان فلسفية، وألفاظ غريبة، فإذا سمع بعض شعره الأعرابيّ لم يفهمه، فإذا فسّر له فهمه واستحسنه.

ويرد أصحاب البحتري ليردّوا على خصومهم دعاواهم، فالعلماء الذين يقصر عليهم فهم شعر صاحبهم، هاجموا أبا تمام شرّ هجوم. أما قصور فهم ابن الأعرابي عن شعر أبي تمام، فالعيب والنقص في ذلك يلحقان أبا تمام، إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله. هذا، على حين تعمّد (البحتري) حذف الغريب والوحشي من شعره، ليقرّبه على فهم من يمدحه لهذا، وقع الإجماع على استحسانه واستجادته، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة، على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم. فمن اتفق عليه الناس جميعاً،هو أولى بالفضل، وأحقّ بالتقدمة.

إن الحجج التي تقدّم بها الطرفان المتخاصمان، تضعنا أمام قضايا هامة في النقد العربي القديم.وهي أن جودة الشعر في نظر أنصار القديم رهينة تقبل الناس ، فمن قبل الناسُ شعرَه هو دون شك أفضل. هذا يعني يستوجب على الشاعر ، أن يتفق شعره وذوق المتلقين. وحتى يتم ذلك، ينبغي أن يكون واضحاً مفهوماً، وهذا ما فعله البحتري حين تعمّد حذف الغريب والوحشي من شعره.

ولو تكلمنا عما طرحه النقاد عن الغموض، نجد أن صاحب الفكر الثاقب عبد القاهر الجرجاني (471هـ) ينظر لقضية الغموض في الشعر بعين الاعتدال فقد استحسن الغموض في الشعر وليس بأي غموض، بل ذلكم الغموض المبني على التعقيد الفني الذي ينم عن قدرة فنية فذة، فرأى أن وضوح المعنى لا يتعارض مع المعنى اللطيف الذي يتوصل إليه بشيء من التفكير فيؤسس الجرجاني لفكرته هذه ليصل إلى ما مفاده أن الصورة لا بد أن تتميز بشيء من الغموض من خلال تباعد أطرافها مع كون هذا التباعد مقبولاً عقلاً ولذلك فعبد القاهر يشبه هذا النوع من الغموض في الصورة والغوص على معناه بالجوهرة النفيسة داخل الصدفة فلا يحصل عليها إلا ببذل الجهد لشق هذه الصدفة.

ظل النقد العربي، بل الثقافة العربية الإسلامية عامة، تميل إلى الوضوح، وتحث عليه، وتعيب الغموض والتعقيد بأشكالهما كافة، وتستهجن كل ما يمكن أن يكون سبباً فيهما: كوحشي الألفاظ، وغرابة المفردات، والمعاظلة في التركيب، والتقديم والتأخير من غير سبب بلاغي، والبعد في الاستعارة، وعدم المقاربة في التشبيه وإدخال الفلسفة والمنطق، وما شاكل ذلك.

قال بشر بن المعتمر: «إن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك، على أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.
وتحدث بشر عن ثلاثة منازل للمعاني، وجعل «أولى ذلك أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت، وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت.
وسئل بعض العلماء: ما الشعر عندك؟ قال: السهل الممتنع.
وقال أبو هلال العسكري: "من أراد الإبانة في مديح أو غزل أو صفة شئ، فأتى بإغلاق، دل ذلك على عجزه عن الإبانة".
وقال الآمدي في التعقيب على بيت أبي تمام:
جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء
مازلت أسمع الشيوخ يقولون: هذا البيت من تخليطه ووساوسه، لأن الشعر أنما يُستحسن إذا فُهم. وهذه الأشياء التي يأتي بها منغلقة، ليست على مذهب الأولين والمتأخرين.
وذكر الثعالبي من عيوب المتنبئ استعماله لألفاظ المتصوفة، واستعمال كلماتهم المعقدة، ومعانيهم المغلقة، من مثل قوله في وصف فرس:
وتسعدُني في غمرة بعد غمرة سبوحٌ لها منها عليها شواهد
كما عد من عيوبه - بسبب تعقيده - ا لخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة.
ودعا النقاد الشعراء أن يجتنبوا من القول كل ما يُعتذر عن عدم وضوحه. قال أبو بكر الشنتريني: "الأولى بالشاعر أن يجتنب كل ما اعذر منه، فقد قيل: شر الشعر ما سئل عن معناه، وأحسنه ما كان لفظه إلى سمعك أقرب من معناه إلى قلبك."
وتحدثت طائفة من العلماء عن الصور الفنية التي يأتي بها الشعراء، فربطوا جمالها بالوضوح، وقدرتها على كشف الغامض، قال الرماني: "التشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح. والقبيح خلافه. وأحسن التشبيه ما قارب الحقيقة وكان أبلغ منها.".
وقال أبو بكر الشنتريني: كلما بعدت الاستعارة عن الحقيقة قُبحت، كقول بعضهم:
اسفري لي يا ضرّة الشمس
كأنه توهم أن الضرة لا تكون إلا حسنة. وهذا وهم شديد، وتوهم غير سديد.. ومن قبيح الاستعارة قول [بشار](https://www.sudaress.com/city/%D8%A8%D8%B4%D8%A7%D8%B1):
وجدت رقاب الوصل أسياف هجرها

وقدت لرجل البين نعلين من رجلي
فجعل للوصل رقاباً، وللبين رجلاً. وهذا بعيد جداً.
وعرف الشعراء أن رواج شعرهم عند المتلقي مقرون بالوضوح وقال البحتري يمدح قصائده بالابتعاد عن الغموض والتعقيد:
خزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
**مفهوم الوضوح**ما مفهوم الوضوح الذي هو سمة عامة من سمات الفكر العربي الإسلامي؟ وما صلته بمصطلحات كثيرة قد تلتبس به؟
ان الوضوح لا يعني السطحية والابتذال كما قد يظن بعضهم، وهو لا يتنافى مع الإيحاء والإشارة ولغة المجاز والتصوير، بل أن الأصل في لغة الأدب عامة، والشعر خاصة، أنها لغة تصويرية مجازية، تعتمد التخييل، وتقوم على التجسيد والتشخيص.
قال الجاحظ "إنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"
وقال ابن سينا: "الشعر كلام مخيل، مؤلف من أقوال موزونة متساوية. وعند العرب مقفاة".
وكان النقاد يدركون خصوصية لغة الشعر، وتميز لغة الشعراء من لغة الكلام العادي. ان الشعراء - كما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي-: أمراء الكلام، يصرفونه أنى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم: من إطلاق اللفظ وتقييده، ومد المقصور، وقصر الممدود، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه،. ولو أراد أن يعبر عن قول امرئ القيس:
فدع عنك نهبا صيح في حجراته
بالعربية - فضلاً عن غيرها - لطال عليه.
وقال ابن رشد: والأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيلة..».
وقد أجمع النقاد والبلاغيون العرب على أن التعبير المجازي أبلغ من التعبير الحقيقي، وأن الكناية - ومن ضروبها الرمز - أبلغ من التصريح.
فالوضوح الذي يتصف به الفكر النقدي العربي لا يعني السطحية، والتعبير المباشر، وأداء المعنى بشكل مبتذل رخيص، أو تقريره في الذهن تقريراً ساذجاً كما تقرر الأقوال العادية في لغة الخطاب اليومي؛ إن الوضوح الذي هو من صفات البيان العربي ليس شيئاً من ذلك، ولكنه يعني في مفهومه العام بلوغ النص المتلقي، ووصوله إليه، لأن من غايات اللغة - سواء أكانت عادية أم أدبية - الاتصال والإفهام.
ولكن من طبيعة القول الأدبي أنه لا يصل بسهولة، ولا يسلم نفسه من أول سانحة، لأن لغته - في أصلها - شفافة كثيفة، إذ هي تستعمل فيه كثيرا من الإيحاءات، مما يجعل التعامل مع النص الأدبي - والشعري خاصة - تعاملاً غير ميسور للجميع، وهو يحتاج إلى غوص وتأمل، وإعمال فكر ، مرفوداً ذلك كله باستعداد ثقافي، وذوق نقدي، وملكة مدربة مصقولة.